بسم الله الرحمن الرحيم

«لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا، وَيُوَقِّرْ كَبِيرَنَا» ٢ صفر ١٤٤٣هـ

عِبَادَ اللهِ: إِنَّ الْأَدَبَ وَالِاحْتِرَامَ مَعَ النَّاسِ خُلُقٌ رَفِيعٌ، يَتَحَلَّىٰ بِهِ كِبَارُ الْهِمَمِ، فَالنَّاسُ يُحِبُّونَ مَنْ يُحْسِنُ إِلَيْهِمْ، وَلَوْ بِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ، أَوِ ابْتِسَامَةٍ صَادِقَةٍ، فَالْمَرْءُ لَا يَسَعُ النَّاسَ بِمَالِهِ وَأَمْلَاكِهِ، وَإِنَّمَا يَسَعُهُمْ بِدِينِهِ وَأَخْلَاقِهِ، وَاللهُ ﷻ يُحِبُّ مَنْ يَتَوَاضَعُ لِعِبَادِهِ، وَيَسْعَىٰ فِي تَيْسِيرِ أُمُورِهِمْ، وَتَسْهِيلِ حَوَائِجِهِمْ، أَخْرَجَ الشَّيْخَانِ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ، مَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً، فَرَّجَ اللهُ عَنْهُ بِهَا كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

إِنَّ احْتِرَامَ النَّاسِ وَتَوْقِيرَهُمْ يَكُونُ بِلِينِ الْكَلَامِ، وَالتَّوَاضُعِ لَهُمْ، وَالِاهْتِمَامِ بِهِمْ، وَقَبُولِ اعْتِذَارِهِمْ، وَالتَّجَاوُزِ عَنْ أَخْطَائِهِمْ، لَاسِيَّمَا فِي هَذِهِ الْأَزْمِنَةِ الَّتِي ضَعُفَتْ فِيهَا الْعَزَائِمُ، وَخَارَتْ فِيهَا الْهِمَمُ، وَتَلَاشَتْ أَكْثَرُ الْأَخْلَاقِ، وَاغْتَرَّ النَّاسُ بِالدُّنْيَا.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: إِنَّ لِلِاحْتِرَامِ صُوَرًا كَثِيرَةً، وَمِنْهَا:

الْأَوَّلُ: احْتِرَامُ الْمَرْءِ نَفْسَهُ. بِأَنْ يُرَاعِيَ مُرُوءَةَ نَفْسِهِ، وَيَصُونَهَا عَنْ فِعْلِ مَا تُعَابُ بِهِ أَوْ تُذَمُّ، فَيَجْتَنِبَ مَوَاطِنَ الرِّيبَةِ وَالتُّهْمَةِ، أَخْرَجَ الشَّيْخَانِ عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ الْحَلَالَ بَيِّنٌ، وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنِ اتَّقَىٰ الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ ...».

قَالَ الْقَاضِي أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْجُرْجَانِيُّ فِي قَصِيدَتِهِ الشَّهِيرَةِ فِي «شَرَفِ الْعِلْمِ وَأَخْلَاقِ الْعُلَمَاءِ وَشَمَائِلِهِمْ»:

وَمَا زِلْتُ مُنْحَازًا بِعِرْضِيَ جَانِبًا ... مِنَ الذُّلِّ أَعْتَدُّ الصِّيَانَةَ مَغْنَمَا
إِذَا قِيلَ هَذَا مَنْهَلٌ قُلْتُ قَدْ أَرَىٰ ... وَلَكِنَّ نَفْسَ الحُرِّ تَحْتَمِلُ الظَّمَا
أُنَزِّهُهَا عَنْ بَعْضِ مَا لَا يَشِينُهَا ... مَخَافَةَ أَقْوَالِ العِدَا فِيمَ أَوْ لِمَا

الثَّانِي: احْتِرَامُ الْكَبِيرِ (سِنًّا، أَوْ مَقَامًا) وَتَوْقِيرُهُ وَتَقْدِيرُهُ. أَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ، وَصَحَّحَهُ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ شَيْخٌ يُرِيدُ النَّبِيَّ ﷺ، فَأَبْطَأَ الْقَوْمُ عَنْهُ أَنْ يُوَسِّعُوا لَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا، وَيُوَقِّرْ كَبِيرَنَا»، وَأَخْرَجَ أَحْمَدُ وَابْنُ حِبَّانَ، وَحَسَّنَهُ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «التَّعْلِيقَاتِ الْحِسَانِ»، عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَتْ: لَمَّا دَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَكَّةَ، وَدَخَلَ الْمَسْجِدَ، أَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِأَبِيهِ، فَلَمَّا رَآهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَالَ: «هَلَّا تَرَكْتَ الشَّيْخَ فِي بَيْتِهِ حَتَّىٰ أَكُونَ أَنَا آتِيهِ فِيهِ». قَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللهِ، هُوَ أَحَقُّ أَنْ يَمْشِيَ إِلَيْكَ مِنْ أَنْ تَمْشِيَ أَنْتَ إِلَيْهِ. قَالَ: فَأَجْلَسَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ، ثُمَّ مَسَحَ صَدْرَهُ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: «أَسْلِمْ». فَأَسْلَمَ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: مُصِيبَةٌ كُبْرَىٰ النَّيْلُ مِنْ أَعْرَاضِ الْعُلَمَاءِ، مِنْ خَبِيثِ النَّفْسِ، سَيِّءِ الطَّوِيَّةِ، قَبِيحِ الْقَصْدِ، فَالْعُلَمَاءُ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ؛ فَالْوُقُوعُ فِيهِمْ مَوْتٌ لِلْقَلْبِ، قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ عَسَاكِرَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «تَبْيِينِ كَذِبِ الْمُفْتَرِي فِيمَا نُسِبَ إِلَىٰ الْإِمَامِ أَبِي الْحَسَنِ الْأَشْعَرِي»: وَاعْلَمْ يَا أَخِي وَفَّقَنَا اللهُ وَإِيَّاكَ لِمَرْضَاتِهِ، وَجَعَلَنَا مِمَّنْ يَخْشَاهُ وَيَتَّقِيهِ حَقَّ تُقَاتِهِ: إِنَّ لُحُومَ الْعُلَمَاءِ رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِمْ مَسْمُومَةٌ، وَعَادَةُ اللهِ فِي هَتْكِ أَسْتَارِ مُنْتَقِصِيهِمْ مَعْلُومَةٌ؛ لِأَنَّ الْوَقِيعَةَ فِيهِمْ بِمَا هُمْ مِنْهُ بُرَاءٌ أَمْرُهُ عَظِيمٌ، وَالتَّنَاوُلَ لِأَعْرَاضِهِمْ بِالزُّورِ وَالِافْتِرَاءِ مَرْتَعٌ وَخِيمٌ، وَالِاخْتِلَاقَ عَلَىٰ مَنِ اخْتَارَهُ اللهُ مِنْهُمْ لِنَعْشِ الْعِلْمِ خُلُقٌ ذَمِيمٌ، وَالِاقْتِدَاءَ بِمَا مَدَحَ اللهُ بِهِ قَوْلَ الْمُتَّبِعِينَ مِنَ الِاسْتِغْفَارِ لِمَنْ سَبَقَهُمْ وَصْفٌ كَرِيمٌ، إِذْ قَالَ مُثْنِيًا عَلَيْهِمْ فِي كِتَابِهِ، وَهُوَ

بِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَضِدِّهَا عَلِيمٌ، ﴿وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

الثَّالِثُ: احْتِرَامُ الْعُلَمَاءِ، وَتَوْقِيرُهُمْ، وَالتَّوَاضُعُ لَهُمْ، وَالْوَفَاءُ بِحَقِّهِمْ. فَقَدْ أَعْلَىٰ اللهُ قَدْرَهُمْ، وَكَرَّمَهُمْ؛ حَيْثُ قَرَنَ شَهَادَةَ الْعُلَمَاءِ بِشَهَادَتِهِ وَشَهَادَةِ الْمَلَائِكَةِ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، وَقَالَ ﷻ: ﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾، أَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ، وَصَحَّحَهُ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، حَتَّىٰ الْحِيتَانُ فِي الْمَاءِ، وَفَضْلُ الْعَالِمِ عَلَىٰ الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَىٰ سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، إِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ».

الرَّابِعُ: احْتِرَامُ الضُّعَفَاءِ وَالْفُقَرَاءِ. أَخْرَجَ الشَّيْخَانِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّ امْرَأَةً سَوْدَاءَ كَانَتْ تَقُمُّ الْمَسْجِدَ - أَوْ شَابًّا - فَفَقَدَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَسَأَلَ عَنْهَا - أَوْ عَنْهُ - فَقَالُوا: مَاتَ، قَالَ: «أَفَلَا كُنْتُمْ آذَنْتُمُونِي»، قَالَ: فَكَأَنَّهُمْ صَغَّرُوا أَمْرَهَا - أَوْ أَمْرَهُ - فَقَالَ: «دُلُّونِي عَلَىٰ قَبْرِهِ» فَدَلُّوهُ، فَصَلَّىٰ عَلَيْهَا، ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ هَذِهِ الْقُبُورَ مَمْلُوءَةٌ ظُلْمَةً عَلَىٰ أَهْلِهَا، وَإِنَّ اللهَ ﷻ يُنَوِّرُهَا لَهُمْ بِصَلَاتِي عَلَيْهِمْ».

الْخَامِسُ: الِاحْتِرَامُ دَاخِلَ الْأُسْرَةِ. أَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ، وَصَحَّحَهُ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: بَلَغَ صَفِيَّةَ أَنَّ حَفْصَةَ قَالَتْ: بِنْتُ يَهُودِيٍّ، فَبَكَتْ، فَدَخَلَ عَلَيْهَا النَّبِيُّ ﷺ وَهِيَ تَبْكِي، فَقَالَ: مَا يُبْكِيكِ؟ فَقَالَتْ: قَالَتْ لِي حَفْصَةُ: إِنِّي بِنْتُ يَهُودِيٍّ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّكِ لَابْنَةُ نَبِيٍّ، وَإِنَّ عَمَّكِ لَنَبِيٌّ،

وَإِنَّكِ لَتَحْتَ نَبِيٍّ، فَفِيمَ تَفْخَرُ عَلَيْكِ؟ ثُمَّ قَالَ: اتَّقِي اللهَ يَا حَفْصَةُ».

عِبَادَ اللهِ: لَقَدْ أَدْهَشَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْعَالَمَ كُلَّهُ بِحُسْنِ تَعَامُلِهِ مَعَ النَّاسِ جَمِيعًا.

وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ ﷺ كَانَ يُمَازِحُ الصَّغِيرَ. أَخْرَجَ أَبُو دَاوُدَ، وَصَحَّحَهُ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدْخُلُ عَلَيْنَا، وَلِي أَخٌ صَغِيرٌ يُكْنَىٰ: أَبَا عُمَيْرٍ، وَكَانَ لَهُ نُغَرٌ يَلْعَبُ بِهِ، فَمَاتَ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ فَرَآهُ حَزِينًا، فَقَالَ: «مَا شَأْنُهُ؟» قَالُوا: مَاتَ نُغَرُهُ، فَقَالَ: «يَا أَبَا عُمَيْرٍ مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ؟».

وَكَانَ ﷺ يَتَوَاضَعُ مَعَ الْإِمَاءِ. أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: إِنْ كَانَتِ الْأَمَةُ مِنْ إِمَاءِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، لَتَأْخُذُ بِيَدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَتَنْطَلِقُ بِهِ حَيْثُ شَاءَتْ.

وَكَانَ يَعْفُو عَنِ الْإِسَاءَةِ، وَيَغْفِرُ الزَّلَّةَ، وَيَتَحَمَّلُ جَفَاءَ الْجُفَاةِ. أَخْرَجَ الشَّيْخَانِ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: كُنْتُ أَمْشِي مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَعَلَيْهِ رِدَاءٌ نَجْرَانِيٌّ غَلِيظُ الْحَاشِيَةِ، فَأَدْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ، فَجَبَذَهُ بِرِدَائِهِ جَبْذَةً شَدِيدَةً، نَظَرْتُ إِلَىٰ صَفْحَةِ عُنُقِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَقَدْ أَثَّرَتْ بِهَا حَاشِيَةُ الرِّدَاءِ مِنْ شِدَّةِ جَبْذَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، مُرْ لِي مِنْ مَالِ اللهِ الَّذِي عِنْدَكَ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَضَحِكَ، ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ.

مَنْ صَنَعَ لَهُ مَعْرُوفًا دَعَا لَهُ، وَجَازَاهُ بِالْإِحْسَانِ، أَخْرَجَ أَحْمَدُ فِي «مُسْنَدِهِ»، وَصَحَّحَهُ الْعَلَّامَةُ أَحْمَدُ شَاكِرٍ رَحِمَهُ اللهُ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ فِي بَيْتِ مَيْمُونَةَ، فَوَضَعْتُ لَهُ وَضُوءًا مِنَ اللَّيْلِ، فَقَالَتْ مَيْمُونَةُ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَضَعَ لَكَ هَذَا عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبَّاسٍ. فَقَالَ: «اللهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ».